منهج الإمام الشوكاني
في تفسير آيات الصفات

الدكتور
عبد الحق عبد الدائم القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن افضل ما يشتغل به المشتغلون ويتنافس في خدمته المتنافسون، هو كتاب الله -عز وجل.

وقد أكبرت الإمام الشوكاني منذ نعومة أظافري وأكبرت تفسيره وما أودعه فيه من كنوز ثمينة قد لا توجد في غيره من كتب التفسير، وقد وضع الله له القبول حيث أصبح متداولاً في كثير من الجامعات الإسلامية والمؤسسات القرآنية وبين طلاب العلم والمعرفة، وهو خليق بذلك لأنه جمع بين فني الرواية والدراية، واعتمد على مصادر متنوعة، وتصدى للرد على أهل البدع والضلالات بأسلوب مهذب فريد، فهو من أهم كتب التفسير في القديم والحديث شكلاً وموضوعاً.

وقد أردت أن أسهم في هذا الميدان الفسيح وأن أتعرف على جانب مهم من جوانب هذا التفسير فكتبت هذا البحث بعنوان (منهج الشوكاني في تفسير آيات الصفات) راجياً من الله سبحانه التوفيق والسداد.

ترجمة الإمام الشوكاني

لقد ترجم للإمام الشوكاني جمع غفير فهو اشهر من أن يترجم له، ولذلك سأذكر نبذة مختصرة عنه لصغر حجم البحث الذي لا يحتمل الإطالة ولكون الشوكاني قد ترجم له الكثير من العلماء.

فهو الإمام المجتهد: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني.

ولد في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة من سنة ألف ومائة وثلاثة وسبعين في هجرة شوكان، من بلاد خولان، وكانت وفاته سنة ألف ومائتين وخمسين هجرية، حفظ القرآن وجوده وحفظ كثيراً من المتون منذ نعومة أظافره، ثم اتصل بالعلماء وكبار الشيوخ وتلقى منهم كثيراً من العلوم على اختلاف مشاربهم وتنوع معلوماتهم، وقد تصدر للافتاء وهو في سن العشرين.

ومن هذا نفهم كيف نشأ في طلب العلم وترعرع في أحضانه، وقد كان والده معيناً له على الاشتغال بالعلم، بل لم يسمح له بالانتقال من صنعاء خوفاً على أن يؤثر ذلك في تحصيله العلمي، وكانت دروسه تبلغ يومياً نحوا من ثلاثة عشر درساً تلقياً عن مشايخه أو تدريساً لتلاميذه.

وقرأ كثيراً من الكتب على مشايخه الفضلاء قراءة تحقيق وتمحيص وفهم وتدقيق في فنون متعددة كالتفسير والحديث والفقه واللغة والأدب.

حتى وصل الى مرتبة الاجتهاد وخلع ربقة التقليد، وأخذ الاحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان على المذهب الزيدي، فصار علماً من أعلام المجتهدين، وبلغت مؤلفاته ما يقرب من مائتي مؤلف وثمان وسبعين مؤلفاً، طبع منها ما يقرب من أربعين كتاباً.

ولا تزال بقية مؤلفاته تنتظر من ينفض عنها الغبـــار ويخرجـــها الى النـــور ليستفيد منها طلاب العلم والمعرفة وهذه أشهر المؤلفات:

*فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.

*نيل الأوطار شرح منتقى الاخبار.

*السيل الجرار المتدفق على حدائق الازهار.

البدر الطالع بمحاسن القرن السابع.

*الدراري المضيئة شرح الدرر البهية.

*شرح الصدور في تحريم رفع القبور.

*القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد.

وغيرها من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة والتي لا يتسع هذا المبحث لذكرها.

تمهيد

معنى المنهج

النهج: الطريق الواضح، ونهج: كمنع: وضح وأوضح، والطريق سلكه، واستنهج الطريق: صار نهجه، ونهج فلان سبيل فلان: سلك مسلكه[1].

إذا فمعنى (نهج) أي سلك الطريق الواضح، والمنهج والمنهاج بمعنى واحد.

ومنه قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) المائدة ٤٨.

قال الامام ابن كثير: هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله له رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد[2].

وبعد معرفتنا لمعنى كلمة (المنهج) نستطيع أن نتعرف على منهج الأمام الشوكاني الموضوعية التي سلكها في تفسير آيات الصفات والطريقة التي انتهجاها، وهو موضوع خطير لأنه يتعلق بصفات الله -عز وجل- وأسمائه الحسنى، وهي من صميم تفسير آيات الصفات التي كثيراً ما يتخبط فيها بعض المفسرين بين مشبه ومجسم وبين معطل ومحرف، والامام الشوكاني لا شك أنه من أئمة أهل السنة المجتهدين كما سبق، وقد ألف في الاعتقاد وتنقية التوحيد من مظاهر الشرك والالحاد.

وقال أحد تلاميذه: وعقيدته عقيدة مذهب السلف من حمل صفات الله تعالى الواردة في القرآن الحكيم والسنة النبوية الصحيحة على ظاهره من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألف رسالة في ذلك سماها (التحف بمذهب السلف)[1]

---

(١) راجع ترجمته في البدر الطالع ص٧٣٢-٧٤٢ رقم ٤٨٢ تحقيق د/حسين عبد الله المعمري ط دار الفكر دمشق. والإمام الشوكاني مفسراً ص٥٩-٧٢ والإعلام للزركلي ٢٩٨/٦.

(٢) أنظر القاموس المحيط ٢١٨/١ (نهج)، وراجع مختار الصحاح ص٦٨١ والمصباح المنير ص٦٢٨، وزاد المسير في علم التفسير ٣٦٢/٢ والمفردات للراغب ص٥٠٦.

الصفات

قبل الكلام على منهج الشوكاني في تفسير آيات صفات الرب تبارك وتعالى أرى أن أعطي فكرة موجزة عن أنواع الصفات من حيث ثبوتها:

النوع الاول: الصفات الشرعية العقلية: وهي التي يشترك في اثباتها الدليل الشرعي السمعي والدليل العقلي والفطرة السليمة، وهي أكثر صفات الرب تعالى، بل أغلب الصفات الثبوتية يشترك فيها الدليلان السمعي والعقلي.

النوع الثاني: الصفات الخبرية: وتسمى النقلية والسمعية وهي التي لا سبيل لإثباتها إلا بطريقة السمع والخبر عن الله أو عن رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام، أي لا سبيل للعقل على انفراده الى إثباتها لولا الاخبار المنقولة عن الله وعن رسولهﷺ، وهي خبرية محضة، بيد أن العقل السليم لا يعارض فيها الخبر الصحيح كما هو معروف كالوجه واليد والعين والغضب والرضا والفرح والقدم -بفتح القاف- والاستواء والنزول والمجيء والضحك[٢].

وهذه الصفات تنقسم الى قسمين:

القسم الاول: صفات فعلية تتجدد حسب مشيئة الله، كصفة النزول والاستواء على العرش والمجيء يوم القيامة لفصل القضاء مجيئاً يليق بجلالة، وكذا صفة الغضب والفرح والضحك.

فهذه الصفات وأمثالها نثبتها ونؤمن بها لورود الخبر وصحته، ولولا ذلك لأمسكنا عن الكلام في هذه الصفات وغيرها من الصفات والاسماء لأنها توقيفية،

---

(١) تفسير بن كثير ٢/٦٦.

(٢) انظر مقدمة فتح القدير ١/٧ وقد طبع في ط المنيرية سنة ١٣٨٣هـ والحلبية ١٣٥٠هـ والشوكاني مفسرا ص٩٦.

وهذا ما نعنيه بالخبرية ولا يمنع ذلك إثبات الصفات الخبرية بالأدلة العقلية مع الأدلة النقلية التي هي الأصل.

*القسم الثاني: صفات ذاتية قائمة بذاته العملية، وهي قديمة قدم الذات مثل الوجه واليد والعين..الخ.

وهذه الصفات وإن كانت تعد في حق المخلوق جوارح وأعضاء وأجزاء ولكنها في حق الله تعالى صفات أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسولهﷺ لا نخوض فيها بأهوائنا وآرائنا، بل نفوض كنهها وحقيقتها الى الله تعالى لعدم معرفتنا لحقيقة الذات.

لأن معرفة حقيقة الصفة متوقفة على معرفة حقيقة الذات كما لا يخفى بل نثبتها ونؤمن بها دون تكييف وتجسيم وتشبيه، وهكذا يقال في الرحمة والمحبة والرضا وسائر صفات الرب تعالى[1].

ولا شك أن صفات الخالق تختلف عن صفات المخلوقات فمهما تصور الانسان أن صفة الله تعالى تشبه صفة من الصفات التي يراها أو يسمع عنها فتصوره خاطئ لأن ما تصوره أو تخيله هو مخلوق والخالق بخلاف المخلوق فصفاته جل جلاله وتقدست أسماؤه هي صفات كمال تليق بجلاله وعظمته، وصفات المخلوق حادثة محدودة مخلوقة، حتى وإن كان هناك اشتراك في اللفظ أو المعنى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ سورة الإسراء الآية ١١٠.

---

(١) أنظر الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية ص٢٠٧.

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الاسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ سورة الحشر الآية ٢٤.

الى غير ذلك من الآيات التي لا يتسع المقام لذكرها، وقد جاءت الاحاديث وأقوال السلف الصالح والأئمة المجتهدين كالإمام الشوكاني وغيره، تبين هذه الأسماء وتفسرها وتوضحها، وما الذي يجب على العبد اعتقاده فيها من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وأقوال سلف الأمة.

ومن ذلك ما ورد في حديث أبي هريرةﷺ (اللهم أنت الاول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)[١].

ومن ذلك ما جاء في الحديث المتفق على صحته أن النبيﷺ قال: (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، ومن أحصاها دخل الجنة)[٢].

وأما كلام أئمة السلف والخلف في هذا فواضح واليك أسوق بعضا من ذلك فهذا نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري المتوفي سنة ٢٢٨هـ يقول: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً"[٣].

ويقول الامام ابن تيمية: "الاصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله، نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه.

---

(١) المصدر نفسه ص٢٨٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم ١٧/٣٦.

(٣) رواه البخاري كتاب الدعوات باب لله مائة إسم غير واحد ١١/٢١٤ فتح الباري، ومسلم كتاب الذكر والدعاء باب في أسماء الله تعالى ١٧/٥ بشرح النووي.

وقد علم أن طريقة سلف الامة وأئمتها: (إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأعراف الآية ١٨٠.

فطريقهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطل كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى ١١.

ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل[1].

ومن خلال هذه الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وكلام الأئمة نفهم أنه يجب على العبد أن ينزه الله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته من صفات المخلوقين، وأن يثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسولهﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى، دون تكييف أو تشبيه، ودون تحريف أو تعطيل، ويحسن هنا ونحن بصدد الحديث عن الامام الشوكاني في تفسير آيات الصفات أن ننقل كلامه وموقفه من صفات الله تعالى ورده على المبتدعة الذين يحرفونها أو يؤولونها حيث يقول: الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة، هو ما كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم، وقد كانوا -رحمهم الله وأرشدنا الى الإقتداء بهم والاهتداء بهديهم- يمرون أدلة الصفات على ظاهرها ولا يتكلفون علم ما لا يعلمون، ولا يتأولون.

---

(١) العقيدة الطحاوية مع شرحها ص١٤٤ وتفسير ابن كثير ٢/٢٢٠.

وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم والمتقرر من مذاهبهم، لا يشك فيه شاك ولا ينكره منكر ولا يجادل فيه مجادل. وقد كانوا يبينون للناس ضلالات وبطلان كلام المبتدعة، ويحذرونهم منهم.

قال: وبهذا تعرف أن مذاهب السلف من الصحابة ﷺ والتابعين وتابعيهم، هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشيء فيها، ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل يفضي إليه كثير من التأويل، وكانوا إذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلوا عليه الدليل وأمسكوا عن القال والقيل...

وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة، والطريقة لهم جميعاً متفقة وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به، وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله وغير ذلك مما كلفهم الله بالقيام به. فكان الدين إذ ذاك صافياً عن كدر البدع، خالصاً عن شوب ألوان التمذهب، فعلى هذا النمط كان الصحابة ﷺ والتابعون وتابعوهم، وبهدي رسول الله ﷺ اهتدوا وبأفعاله وأقواله اقتدوا. فمن قال: إنهم تلبسوا بشيء من هذه المذاهب الناشئة في الصفات أو في غيرها، فقد أعظم عليهم الفرية، وليس بمقبول في ذلك، فأن أقوال الأئمة المطلعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقاة الأثبات، يرد عليه ويدفع في وجهه. يعلم ذلك كل من له علم، ويعرفه كل عارف فاشدد يدك على هذا، واعلم أنه مذاهب خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...ودع عنك ما حدث من تلك المذاهب في الصفات، وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها وجعلوها أصلاً يرد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن وافقها فقد وافقا الأصول المتقررة في زعمهم، وإن خالفها فقد خالفا الأصول المتقررة في زعمهم، ويجعلون الموافق لها من قسم المقلوب والمحكم، والمخالف لها من قسم المردود أو المتشابه ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى، أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح، لم يبالوا به ولا رفعوا إليه رؤوسهم ولا عدوه شيئاً.

ومن كان منكراً لهذه فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام، فإنه سيقف على الحقيقة، ويسلم هذه الجملة ولا يتردد فيها. أ.هـ[1].

وقد نقلت هذا النص عن الإمام الشوكاني بطوله لأنه يكشف لنا مذهبه ويبين لنا عقيدته وموقفه من تفسير الأسماء والصفات ومنهجه في ذلك، كما نستطيع التعرف على أسلوبه القوي في الرد على مختلف الفرق التي حرفت أو أولت وبيان شبهاتهم وقواعدهم التي اعتمدوا عليه، ولنبدأ الآن الحديث عن منهجيه -رحمه الله- في تفسير آيات الصفات.

أولاً: منهجه في تفسير صفة الاستواء

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ سورة البقرة من الآية ٢٩.

يقول الشوكاني عند تفسير هذه الآية: والاستواء في اللغة: الاعتدال والاستقامة، قاله في الكشاف[2].

ويطلق على الارتفاع والعلو على الشيء، قال تعالى ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ﴾ المؤمنون ٢٨، وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ سورة الزخرف من الآية ١٣، وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية، وقد قيل إن هذه الآية من المشكلات.

---

(١) الرسالة التدمرية لابن تيمية ص٧/٨ وانظر العقيدة الطحاوية ص١٤٣ وراجع لمعه الاعتقاد الهادي الى سبيل الرشاد ص٢١ فما بعدها وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/٣٠٥.

(٢) التحف في مذاهب السلف ص٣١-٤٠ باختصار، ط الأولى ١٤١٤هـ، مكتبة الإرشاد -صنعاء، عني بالتعليق عليها وتخريج أحاديثها محمد صبحي حلاق.

وقد ذهبت كثير من الأئمة الى الإيمان بها وترك التعرض لتفسيرها وخالفهم آخرون[1] أ.هـ

قال الفراء: الاستواء في كلام العرب على جهتين: إحداهما أن يستوي الرجل وينتهي شبابه، أو يستوي عن اعوجاج. فهذان وجهان. ووجه ثالث أن تقول: كان مقبلاً على فلان ثم استوى عليّ وإلي يشاتمني، على معنى: أقبل إلي وعلي، فهذا معنى قوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾(البقرة: من الآية٢٩) والله أعلم[2].

وقال البيهقي: (استوى) بمعنى اقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد الى خلق السماء، والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى...)[3].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ سورة الأعراف من الآية ٥٤.

يقول الإمام الشوكاني: قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً[4]. وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به، مع تنزهه عما لا يجوز عليه.

والاستواء في لغة العرب: هو العلو والاستقرار.

---

(١) أنظر الكشاف ١/ ١٧٠ وتكملة كلام الزمخشري. يقال استوى العود وغيره: إذا قام واعتدل، ثم قيل استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوى على شيء ...الخ.

(٢) فتح القدير ١/ ٦٠. وقد تعرض لتفسير هذه الآية كثير من أئمة التفسير منهم الزمخشري كما سبق والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١ ٢٥٤. والثعالبي في الجواهر الحسان ١/ ٤٢ وأبو السعود ١ ٧٨ وغيرهم

(٣) معاني القرآن للفراء ١ ٢٥.

(٤) نقله عنه الأمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١/٢٥٥، وانظر البيهقي وموقفه من الإلهيات للدكتور الغامدي ص ٢٨٠ الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٠٢ هـ.

قال الجوهري: استوى على ظهر دابته: أي استقر، واستوى الى السـماء، أي صعد. واستوى: أي استولى وظهر.

ومنه قول الشاعر: قد استوى بشر على العراق مـن غـير سـيف ودم مهراق[1]

واستوى الرجل: أي انتهى شبابه، واستوى أي أتسق واعتدل، وحكي عن ابي عبيدة أن معنى (استوى) هنا (علا)[2].

ومثله قول الشاعر:

فـأورد هـم مـاء ثقيفـا بقفـرة   وقد حلق النجـم اليمـاني فاسـتوى[3]

أي علا وارتفع.

والعرش قال الجوهري: هو سرير الملك[4]. ويطلق العرش على معان آخر. منها عرش البيت: سقفه، وعرش البئر: طيها بالخشب، وعرش السـماك: أربعة كواكب صغار، ويطلق على الملك والسلطان والعز[5].

---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/٢١٩.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٢٠. وأبو حيان في البحر المحيط ١/٢١٤. وهو مما احتج به المعتزلة، وأنظر فتح الباري ١٣/٤٠٥، وقال ابن الجوزي نقلاً عن ابـن فارس اللغوي: والبيت لا يعرف قائله، زاد المسير في علم التفسير ٣/٢١٣.

(٣) في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٢٧٣، (ثم استوى على العرش) مجازة: ظهر على العـرش وعلا عليه. ويقال: استويت على ظهر الفرس وعلى ظهر البيت أهـ.

(٤) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٠٢. وفيه: فاوردتهم ماء بفيفاء....

(٥) ومنه قوله تعالى عن بلقيس ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(النمل: من الآية٢٣)، وقوله ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾(يوسف: من الآية١٠٠)، وانظر البحر المحيط ٤/٣٠٨.

ومنه قوله زهير:

تدار كتما عبساً وقد ثـــل عرشــها   وذبيان إذ زلت بأقدامــها النعــل[1]

وقول الآخر:

إن يقتلوها فقـــد ثلــت عروشـــهم   بعتبية بن الحـــرث بـــن شـــهاب[2]

وقول الآخر:

رأوا عرشــــي تثلـــم جانبــــاه   فلمـــــا أن تثلـــــــم أردوني

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة العـــرش وإحاطتـــه بالســـموات والأرض وما بينهما وما عليهما[3]، وهو المراد هنا.

قال: وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قـــالت: في قولـــه ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(الأعراف: من الآية٥٤): الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول، والإقـــرار به إيمان، والجحود به كفر[4].

وعن الإمام مالك أن رجلاً سأله: كيف استوى علـــى العـــرش ؟ فقـــال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنـــه بدعه[5].

---

(١) أنظر المفردات للراغب الاصفهاني ص٣٢٩ (عرش) ومختار الصحاح ٤٢٣ (عرش).

(٢) البيت لزهير بن ابي سلمى المزني، أنظر المعلقات السبع ص٩٢ ط ١٣٨١هـــ. مكتبـة القاهرة وذكره ابو حيان. أنظر البحر المحيط ٤/٣٠٨. وهو من شوساهد أبن منظـــور في لسان العرب ٦/٣١٤ عرش.

(٣) ذكره ابو حيان ٤/٣٠٨.

(٤) انظر فتح الباري كتاب التوحيد باب (وكان عرشه على الماء) ١٣/٤٠٣ وسنن أبي داود كتاب السنة باب في الجهمية ٥/٩٣ فما بعدها.

(٥) أخرجه اللالكائي في كتاب السنة من طريق الحسن البصري، فتح البـــاري ١٣/٤٠٦، وانظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣/٤٧٣.

يقول الامام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(الأعراف: من الآية٥٤)، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر الى أذهان المشبهين منفي عن الله فأن الله لا يشبهه شيء من خلقه.

فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائض، فقط سلك سبيل الهدى[1] أ.هـ.

فأنت ترى الإمام الشوكاني سلك في تفسيره لهذه الآية وغيرها من الآيات التي تتحدث عن صفة الاستواء مسلك الصالح كالإمام نعيم بن حماد شيخ البخاري والبيهقي وابن تيمية وابن كثير وغيرهم ممن لا يحصيهم هذا المقام.

ولذلك نجد الشوكاني عند تفسير الآية الثالثة من سورة يونس ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يحلينا في تفسيرها الى آية سورة الأعراف التي نحن بصدد الحديث عنها، قال: وقد تقدم تفسير هذه الآية في الأعراف –وذكر الآية– فلا نعيده هنا[2].

---

(١) فتح القدير ٢/٢١١–٢١٢، وقد ذكر الأثرين المرويين عن أم سلمة والإمام مالك: السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣/٤٧٣، وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/٤٠٦ فما بعدها وشرح العقيدة الطحاوية ص١٢٨ والبحر المحيط ٤/٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٠ وراجع أضواء البيان ٢ ٢١٢.

وعند تفسير الآية الثانية من سورة الرعد نجده يخلط في كلامه فيؤل الاستواء بالاستيلاء والاقبال على خلق العرش، ثم يعود فيثبت لله صفة الاستواء بلا كيف. وهو ما قرره في آية سورة الأعراف.

قال رحمه الله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استولى عليه بالحفظ والتدبير، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش، وتقدم الكلام على هذا مستوفى.

والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف، كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام[1] أ.هـ.

فكلامه في تفسير هذه الآية نجده مضطرباً، فمرة يتأول الاستواء على العرش بالاستيلاء والحفظ ثم يعود مرة أخرى ليثبت صفة الاستواء لله عز وجل بلا كيف.

ولعله تأثر ببعض العلماء في عصره فنقل كلامهم دون نظر لما قرره في سورة الأعراف، فلا ينبغي أن نؤل الاستواء بالاستيلاء وأن نزيد (لاما) في كلمة (استوى) حتى تصبح (استولى)[2].

وقد تقدم كلام الإمام ابن كثير في تفسيره لآية الأعراف، أما عند تفسيره لآية الرعد فقد أحالنا الى آية الأعراف قال: تفسير: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وأنه يمر من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، تعالى الله علوا كبيراً[3] أ.هـ.

وأما ما ذكره الشوكاني بأن معنى (استوى) استولى فهو تفسير لا يقبل عند علماء السلف، لأن الاستيلاء عبارة عن غلبة مع توقف ضعف. وقد رد ابن

---

(١) فتح القدير ٢/٤٢٣. وانظر ٢/٢١٢، ٢١١.

(٢) فتح القدير ٣/٦٤.

(٣) ذكر معنى هذا الشيخ السقيطي –رحمه الله– في منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص٣٦، ط الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ١٤٠٠هـ.

الاعرابي من علماء اللغة على رجل قال له: إنما معنى (استوى) استولى، فقال له ابن الأعرابي: ما يدريك؟ والعرب لا تقول: استولى على العرش فلان حتى يكون له مضاد فأيهما غلب قيل: قد استولى عليه. والله لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر[1].

قال ابن الجوزي عند تفسير قوله تعالى: (ثم استوى على العرش) الأعراف ٥٤، بعضهم يقول استوى بمعنى استولى، ويحتج بقول الشاعر:

حتى استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وبقول الشاعر:

قد استويا بفضلهما جميعاً على عرش الملوك بغير زور

وهذا منكر عند اللغويين، قال ابن الأعرابي: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم، قالوا: وإنما يقال: استولى فلان على كذا، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه، ثم تمكن منه. والله عز وجل لم يزل مستولياً على الأشياء.

والبيتان لا يعرف قائليهما، كذا قال ابن فارس اللغوي. ولو صحا، فلا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا، ونعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة[2].

وعند تفسيره للآية الخامسة من سورة طه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(طه:٥) نجده ينقل كلام اللغويين في معنى الاستواء، ثم يحيلنا على ما قرره في سورة الأعراف من الإيمان باسمائه تعالى الحسنى وصفاته العلى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٩٩.

(٢) انظر البيهقي وموقفه من الإلهيات ص٢٧٧.

فيقول: قال أحمد بن يحيى: قال ثعلب: الاستواء الإقبال على الشيء، وكذا قال الزجاج والفراء. وقيل: وهو كناية عن الملك والسلطان. والبحث في تحقيق هذا يطول، وقد تقدم البحث في سورة الأعراف. والذي ذهب إليه ابو الحسن الأشعري أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حد ولا كيف[1]. والى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذين يمرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل[2]. أ. هـ.

أما في الآية التاسعة والخمسين من سورة الفرقان ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(الفرقان: من الآية٥٩) فقد أحال كذلك في تفسيرها الى ما قرره في سورة الأعراف، قال: قد تقدم تفسير هذا في الأعراف[3].

وعند تفسيره للآية الرابعة من سورة السجدة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تكلم عن تدبير الله عز وجل لأمره، وأنه يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها، نازلة أحكامها وآثارها الى الأرض.

قال والعرش موضع التدبير، كما أ. ما دون العرش موضع التفصيل، كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمًّى

(١) زاد المسير في علم التفسير ٣ ٢١٣. وراجع فتح الباري ١٣ ٤٠٦.

(٢) أنظر الإبانة عن أصول الديانة الباب السابع ذكر الاستواء على العرش ص١١٩. ط الجماعة الاسلامية في المدينة المنورة ١٤٠٥هـ.

(٣) فتح القدير ٣٥٧/٣.

يُدَبِّرُ الأمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(الرعد: من الآية٢)[١]، وما دون السماوات موضع التصرف[٢] أ.هـ.

وعند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الحديد ٤.

نجده كذلك يحيلنا الى ما ذكره في مواضع سابقة قال: وقد تقدم تفسيره في سورة الأعراف وفي غيرها مستوفى[٣] أهـ.

فهذه سبعة مواضع في كتابه العزيز وهي آية الأعراف، يونس، الرعد، طه الفرقان، السجدة، الحديد، كلها صرحت باستواء الله على العرش استواءً يليق بجلالة وعظمته، بغض النظر عن الاستعمالات اللغوية لكلمة (أستوى) وقد عرفنا موقف الإمام الشوكاني ومنهجه في تفسير صفة الاستواء، وهو منهج السلف الصالح الذين يثبتون لله تعالى ما أثبته له رسولهﷺ دون تأويل ولا تعطيل.

وهكذا نجده يقرر مذهب السلف في الاستواء في كتابة التحف[٤] حيث قال: ومن جملة الصفات التي أمرها السلف على ظاهرها، وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة دون تكلف ولا تأويل: صفة الاستواء، فيقولون: نحن نثبت ما أثبته لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلا هو وكيفية لا يدري بها سواه ولا نكلف أنفسنا غير هذا، فليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته ولا يحيط عباده به علماً.

---

(١) فتح القدير ٤/٨٤.

(٢) هكذا ذكرت الآية في التفسير وهي الآية الثانية من سورة الرعد ونصها (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات).

(٣) فتح القدير ٤/٢٤٧.

(٤) فتح القدير ٥/١٦٦.

ثانياً: منهجه في تفسير صفة العلو

قال تعالى: ﴿وسع كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُـوَ الْعَلِـيُّ الْعَظِيمُ﴾ البقرة٢٥٥.

قال الشوكاني عند تفسير هذه الآية: الكرسي: الظاهر أنه الجسم الـذي وردت الآثار بصفته[١].

وقد نفى وجوده مجموعة من المعتزلة. وأخطئوا في ذلك خطأ بينا، وغلطـوا غلطا فاحشاً.

وقال بعض السلف: إن الكرسي هنا: عبارة عن العلم، وقالوا: ومنه قيـل للعلماء: الكراسي، ومنه الكراسة التي تجمع فيها العلم. ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيـض الوجـه وعصبـة كراسي بالأحبـار حـين تنـوب[٢]

ورجح هذا القول ابن جرير الطبري[٣].

---

(١) التحف في مذاهب السلف ص٤١.

(٢) ومن تلك الآثار ما ذكره ابن كثير عن الضحاك عن ابن عبـاس: (لـو أن السـماوات والأرضين السبع بسطن ووصلن بعضهن الى بعض ما كان في سعة الكرسي إلا بمنـزلة الحلقة في المفازة).

(٣) ونقل عن أبي ذر قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة مـن حديد القيت بين ظهراني فلاة من الأرض)، وساق عن أبي بكر بن مردويه بسنده الى أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عند الكرسي والذي نفسي بيده ما السماوات والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفـلاة على تلك الحلقة) إلى غير ذلك من الآثار التي ذكرها ٣٠٩/١، راجع الـدر المنثـور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي ١٧/٢.

وقيل كرسيه: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسياً، أي ما يعمده، وقيل: إن الكرسي هو العرش[1]. وقيل: هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له[2]، وقيل: هو عبارة عن الملك[3].

والحق القول الأول: ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلا مجرد خيالات تسببت عن جهالات وضلالات، والمراد بكونه وسع السموات والأرض: أنها صارت فيه، وأنه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطاً واسعاً.

قال: (والعلي) يراد به علو القدرة والمنزلة، وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه.

قال ابن عطية: وهذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لا تحكى[4].

والخلاف في إثبات الجهة معروف في السلف والخلف. والنزاع فيه كلين بينهم، والأدلة من الكتاب والسنة معروفة، ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع ولا ينظر في أدلته ولا يلتفت إليها. والكتاب والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل ويتبين به الصحيح من الفاسد. ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ المؤمنون ٧١.

ولا شك أن اللفظ يطلق على الظاهر الغالب، كما في قوله (إن فرعون علا في الأرض) القصص ٤.

---

(١) البيت ذكره ابن جرير الطبري ١١/٣ وابن عطية في المحرر الوجيز ١٩٣/٢ ط القاهرة ١٣٩٩هـ والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٧٧/٣ وأبو حيان في البحر المحيط ٢٨٠/٢.

(٢) انظر جامع البيان ١١/٣.

(٣) قال ابن كثير بعد أن ذكر الخلاف في ذلك: والصحيح أن الكرسي غير العرش والعرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار اهـ.

(٤) وهو قول الزمخشري في كشافة ٣٨٥/١، وقد رد عليه ابن المنير الاسكندري ٣١٠/١.

وقال الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر[1]

ومن خلال كلام إمام الشوكاني ورده على ابن عطية والزمخشري يظهر جلياً مذهبه ومنهجه في تفسير آيات الصفات، وهو تفسيرها على ظاهرها دون الخوض في تفاصيلها وكيفياتها معتمداً في ذلك على الآيات والأحاديث الدالة على إثبات صفات الله تعالى ومنها صفة العلو المطلق على سائر مخلوقاته[2]، لأن القرآن أثبت ذلك قال تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾(النحل: من الآية ٥٠)

وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(فاطر: من الآية ١٠)

وقال ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾(الملك: من الآية ١٦)

وقال ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾(الأعلى: ١).

فهذه الآيات وغيرها تثبت جهة العلو المطلق. وأيضاً حديث الجارية التي عرضت للعتق، فقال: النبيﷺ لها: أين الله؟ فقالت في السماء مشيرة بإصبعها، فقال النبيﷺ (اعتقها إنها مؤمنة)[3].

وحديث (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)[4].

---

(١) قال القرطبي في الجامع ٣ ٢٧٧. وأرباب الإلحاد يحملونها على عظم الملك وجلالة السلطان، وينكرون وجود العرش والكرسي، وليس بشيء، وأهل الحق يجيزونها إذ هما في قدرة الله متسع فيجب الإيمان بذلك أهـ.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٢ ١٩٥ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مصر تحقيق احمد الملاح ١٣٩٩هـ.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ١/١٤٣.

(٤) قال بعض العلماء فمن أنكر أن الله في السماء وأنه على العرش استوى فقد كفر، أنظر العقيدة الطحاوية ص٣٢٢.

قال الشوكاني: والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف، وأبين من أن يحتاج فيها الى التطويل، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الاسلامية كثر الكلام فيها وفي مسألة الاستواء وطال.

والحق هو مذهب السلف الصالح، فالاستواء على العرش، والكون في تلك الجهة صرح به رسول اللهﷺ في غير حديث، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه ويحسه في فطرته، وتجذبه إليه طبيعته، كما تراه في كل من استغاث بالله سبحنه وتعالى، والتجأ إليه ووجه أدعيته الى جنابه الرفيع وعزه المنيع، فإنه يشير عند ذلك بكفه، ويرمي الى السماء بطرفه ...الخ[١].

ثالثاً: منهجه في تفسير صفة الرؤية

إن صفة رؤية الله تعالى موضوعها خطير، وقد غلط فيه أقوام كثيرون حيث أنكروا وقوعها في الدنيا والآخرة، كالمعتزلة[٢] والجهمية[٣] وغيرها ممن سار على نهجهم واقتفى أثرهم. وتكلفوا في ذلك وتعلقوا بادلة وحجج واهية أوهى من بيت العنكبوت فزلت أقدامهم. فضلوا وأضلوا. لأنهم حاولوا أن يقفوا أمام نصوص من الكتاب والسنة واضحة جلية فاصطدموا بها.

وإننا نجد الأمام الشوكاني في تفسيره للآيات التي تدل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، نجده يسلك في تفسيرها مسلك السلف الصالح من

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ضمن حديث طويل ٥/٢٤. وأبو داود في كتاب الايمان والنذور في الرقبة المؤمنة ٣/٥٨٨. وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٣٤ عند تفسير آية ٩٢ من سورة النساء وجامع الاصول ١/٢٢٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي باب بعث علي بن أبي طالب الى اليمن أنظر فتح الباري ٨/٦٧.

(٣) التحف في مذهب السلف ص٥٣.

المفسرين والمحدثين، حيث يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥)

ظاهر السياق أن القائلين هذه المقولة هم قوم موسى. وقيل: هم السبعون الذين اختارهم، وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة. فأرسل الله عليهم ناراً فاحرقتهم ...الى أن قال: وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لأنهم طلبوا ما لم يأذن به الله من رؤيته في الدنيا.

وقد ذهب المعتزلة ومن تابعهم(١) الى إنكار الرؤية في الدنيا والآخرة، وذهب من عداهم الى جوازها في الدنيا والآخرة ووقوعها في الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة(٢) وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب...

وما تمسكوا به من الأدلة القرآنية. كلها خارج عن محل النزاع. بعيد عن موضع الحجة. أهـ.

---

(١) هم أصحاب واصل بن عطاء البصير رأس المعتزلة وشيخها. وقد اعتزل عن الحسن البصري لما خلقه، وجلس إليه عمرو بن عبيد فقيل هما ولأتباعهما المعتزلون، ولد بالمدينة سنة ٨٠ وتوفى سنة ١٣١هـ راجع ميزان الاعتدال ٤/ ٣٢٩ والأعلام ٨/ ١٠٨.

(٢) نسبة إلى جهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله سنة١٢٨هـ على الزندقة والإلحاد. والجعد أول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله من صفاته. وقد قتل جهم في آخر ملك بني أمية سنة ١٢٨هـ راجع الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٨٦ مع الهامش. والأعلام للزركلي ٢/ ١٤١ ومختصر معارج القبول ص٦١.

ويقول عند تفسير قوله تعالى[1] ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ١٤٣.

أي أرني نفسك أنظر اليك، أي سأله النظر إليه اشتياقا الى رؤيته لما اسمعه كلامه. وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة. ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها. والجواب بقوله (لن تراني) يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالاحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة. ومنهج الحق واضح، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه، وادرك عليه آباءه وأهل بلده مع عدم التنبيه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة. يوقع في التعصب. والمتعصب -وإن كان بصره صحيحاً- فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء. يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل. ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم.

وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع فإنه صار بها باب الحق مرتجاً، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه والهداية منه.

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

---

(١) قال الزمخشري: من استجاز على الله الرؤية. فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض...الخ الكشاف ٢٨٢/١، قال ابن المنير: انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها....الخ.

الى أن قال:

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والاشعرية، فالمعتزلة[1] استدلوا بقوله ((لن تراني)) وبأمره بأن ينظر الى الجبل. والاشعرية قالوا:- بأن تعلق الرؤية باستقرار الجبل، يدل على أنها جائزة غير ممتنعة. ولا يخفاك أن الرؤية الأخروية هي بمعزل عن هذا كله.

والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة. وكلامهم فيها معروف ...أهـ.

وعند تفسير قوله تعالى[2] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(يونس: من الآية٢٦)

نجده يرد من خلال تفسيره للآية على المتمذهبين الذين لا يعرفون نصوص الكتاب والسنة، أو يعرفون ولكنهم يتجاهلون ويتعصبون الى مذهبهم وأسلافهم فذكر أقوال المفسرين في معنى الزيادة التي ذكرت في الآية، ومنها النظر الى وجهه الكريم.

وانتصر لهذا القول بالاحاديث والآيات الواردة في ذلك قال: وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم عن صهيب (أن رسول الله ﷺ) تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(يونس: من الآية٢٦) قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن

---

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التفسير سورة ق ٨/٥٩٧، وكتاب التوحيد باب قوله الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة: ٢٢-٢٣) ١٣/٤١٩، وسنن أبي داود كتاب السنة باب الرؤية ٥/٩٧، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الايمان باب ما جاء في رؤية الله عز وجل ٣/١٥ فما بعدها وشرح العقيدة الطحاوية ص٢٠٣.

(٢) فتح القدير ٢/٢٤٣.

ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه. فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم)[1]

وذكر عن أبي بكر وعلي وغيرهما من الصحابة أنهم فسروا الزيادة بالنظر الى وجه الرحمن. قال: وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر الى وجه الله سبحانه، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ فلم يبق حينئذ لقائل مقال، ولا التفات الى المجادلات الواقعة بين المتمذهبين الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فأنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم والله المستعان. أهـ.

وهذا التفسير الذي ارتضاه الإمام الشوكاني معتمداً على القرآن نفسه والسنة النبوية وكلام الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل السنة. يخالف ما عليه المعتزلة ومن شايعهم من إنكار الرؤية.

يقول الزمخشري: بعد أن ذكر عدة تفاسير في معنى الزيادة الواردة في الآية وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة: النظر الى وجه الله تعالى.

وجاءت بحديث مرفوع ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، نودوا أن يا أهل الجنة. فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه))[2] أهـ.

وقد أحسن ابن المنير الاسكندري في الرد عليه في كتابه الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال قال: نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى الى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة، مرور على ديدنه المعروف في التكذيب

---

(١) راجع الكشاف للزمخشري ورد ابن المنير الاسكندري عليه في الإنصاف ٢/١١٢-١١٦.
وراجع أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/٣٣٢.

(٢) فتح القدير ٢/٤٤١-٤٤٢.

بما لم يحط به علماً، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة، والحديث المروى فيه مدون في الصحاح متفق على صحته، وقد جعل أهل السنة جاءوا به من عند أنفسهم...أهـ.

وعند تفسير قوله تعالى[1] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة٢٢، ٢٣.

نجد الشوكاني يفسرها بما يثبت نظر المؤمنين الى وجه ربهم يوم القيامة مستدلاً بما تواتر من الأحاديث وكلام المفسرين وأهل اللغة. فيقول ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ أي ناعمة غضة حسنة.

يقال: شجر ناضر وروض ناضر: أي حسن ناعم، ونضارة العيش: حسنه وبهجته.

قال الواحدي والمفسرون يقولون مضيئة مسفرة مشرقة. (الى ربها ناظرة) أي الى خالقها ومالك أمرها ناظرة. أي تنظر إليه. هكذا قال جمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة، كما ينظرون الى القمر ليلية البدر.

قال ابن كثير[2]: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الاسلام وهداة الأنام.

وقال مجاهد: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب، وروى نحوه عن عكرمة، وقيل لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده.

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير ٤/٤٥٠.

(٢) الكشاف ٢/٢٣٤.

قال الازهري: وقول مجاهد خطأ لأنه لا يقال نظر الى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت الى فلان ليس إلا رؤية العين، وإذا ارادوا الانتظار قالوا: نظرته....

وإذا ارادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه وأشعار العرب وكلماهم في هذا كثيرة جداً. أهـ.

ومما استدل به العلماء على إثبات رؤية المؤمنين لرهم يوم القيامة قوله تعالى حكاية عن الكفار ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(المطففين:١٥) حيث استدلوا بمفهوم المخالفة. فإن كان الكفار محجوبين عن الله ونعيمه والنظر الى وجهه تعالى. فإن المؤمنين على العكس من ذلك.

وقد سبق كلام الإمام الشافعي الذي ذكره ابن كثير (ما حجب الكفار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل).

وفي هذا يقول الشوكاني عند تفسيره للآية الكريمة[١] أي حقاً إهم يعني الكفار عن رهم يوم القيامة لا يرونه أبداً قال مقاتل: يعني أهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين الى رهم.

وقال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في الآخرة عن رؤيته.

قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى يوم القيامة ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة[٢] وقال جل ثناؤه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢.٢٣ فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، وأن الكفار محجوبون عنه.أهـ.

(١) فتح القدير ٥/٣٣٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٠.

قال ابن كثـير عنـد تفسـير هـذه الآيـة ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين ١٥) أي لهم يوم القيامة منـزل ونـزل سجين، ثم هم يـوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم.

ثم ذكر كلام الامام الشافعي سال الذكر، قال: وهذا الذي قالـه الإمـام الشافعي –رحمه الله– في غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم هذه الآية. كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢، ٢٣ وكمـا دلت عليه الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجـل في الـدار الآخرة. رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنان الفاخرة[1].

وفي ختام الكلام عن منهج الإمام الشوكاني في تفسير الآيات التي تثبـت رؤية المؤمنين لربهم تعالى يوم القيامة.

أنقل ما قاله الأمام الاوزاعي –رحمه الله– إني لأرجو أن يحجب الله –عـز وجل– جهما وأصحابه عن أفضل ثوابه الذي وعده الله أولياءه. حين يقول ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢، ٢٣ فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابـه الذي وعده الله تعالى أولياءه[2] أهـ.

نسأله تعالى بفضله وكرمه وإحسانه أن يدخلنا فسيح جناتـه وأن يمتعنا بالنظر الى وجهه الكريم وأن لا يجعلنا من المحرومين.

---

(١) قال ابن كثير: ومن تأول ذلك بأن المراد تنظر الثواب من ربها كما ينظرون الى القمر ليلة البدر كمجاهد وغيره فقد أبعد هذا القائل النجعة وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين: ١٥). قال الشافعي رحمه الله تعالى: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الإبرار يرووه عز وجل. ثم قد تواترت الأخبـار عـن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة وهي قوله تعالى ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ اهـ باختصار

(٢) فتح القدير ٥/٤٠٠.

رابعاً: منهجه في تفسير صفة المجيء

جعلت الحديث عن تفسير آيات صفة المجيء لله تعالى بعد الحديث عن تفسير الآيات التي تثبت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، لأن رؤيته لا تكون إلا بعد مجيئه تعالى لفصل القضاء ثم التجلي لأوليائه المؤمنين وتمكينهم من النظر الى وجهه الكريم.

يقول الشوكاني عند تفسير قوله تعالى[1]: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(البقرة: ٢١٠)

أي ينتظرون، يقال: نظرته وانتظرته بمعنى...

والمعنى: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلل من الغمام والملائكة....

وقيل: إن المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه[2].

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيﷺ قال: (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء ونزل الله في ظلل من الغمام من العرش الى الكرسي)[3].

وأخرج أبو يعلى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال: (يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب...)[4].

---

(١) انظر لمعة الاعتقاد الهادي الى سبيل الرشاد ص٦٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٦، ٤٨٥. وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٢/ ٢٠٦. ومختصر معارج القبول بشرح سلم الوصول على علم الأصول في التوحيد ص٦٨. فما بعدها للشيخ آل حكمي ط الخامسة ١٤١٥هـ دار الصفوة.

(٣) مختصر معارج القبول ص٧٠.

(٤) فتح القدير ١/ ٢١٠ باختصار.

وعند تفسير قوله تعالى[1] ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾(الأنعام: من الآية١٥٨)

نجده يفسر بقوله (هل ينظرون) أي ينتظرون (أن تأتيهم الملائكة) أي ملائكة الموت لقبض أرواحهم، وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل (أو يأتي ربك) يا محمد كما اقترحوه بقولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾(الفرقان: من الآية٢١).

وقيل: معناه أو يأتي أمر ربك بإهلاكهم، وقيل المعنى أو يأتي كل آيات ربك بدليل قوله (أو يأتي بعض آيات ربك).

وقيل من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثير، كقوله ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(يوسف: من الآية٨٢)، وقوله ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾(البقرة: من الآية٩٣)، أي حب العجل.

وقيل: إتيان الله، مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه[2]. وكقوله ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(الفجر:٢٢) أ.هـ.

والشوكاني قد أول المجيء عند تفسير هذه الآية بمجيء أمره تعالى وقضائه وقهره وسلطانه معتمداً في ذلك على كلام بعض المفسرين[3].

قال -رحمه الله-[4] (وجاء ربك) أي جاء أمره وقضاؤه وظهرت آياته.

قيل: المعنى أنها زالت الشبه في ذلك اليوم وظهرت المعارف وصارت

---

(١) راجع زاد المسير في علم التفسير ١/٢٢٥ والجامع لأحكام القرآن ٣/٢٥.

(٢) أورده ابن كثير وقال فيه غرابة ١/٢٤٨ والسيوطي في الدر المنثور ١/٢٨٠.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ١/٢٨٠.

(٤) فتح القدير ٢/١٨١.

ضرورية، كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه[1].

وقيل: جاء قهر ربك وسلطانه وإنفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل الى أحد من عباده شيئاً من ذلك أ.هـ.

قال الخازن: (وجاء ربك) إعلم أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة السلف وبعض الخلف، فلم يتكلموا فيها، وأجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وإجراؤها على ظاهرها، وتأولها بعض المتأخرين وغالب المتكلمين، فقالوا ثبت بالدليل العقلي أن الحركة على الله محال فلا بد من تأويل.

وقيل: وجاء أمر ربك وقضاؤه.

وقيل: وجاء دلائل آيات ربك، فجعل مجيئها له تفخيما لتلك الآيات[2] أ.هـ.

قال ابن كثير: (وجاء ربك) يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه...

فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء ....[3]

وقد استدل الذين أولوا صفة المجيء لله تعالى بمجيء أمره بقوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾(النحل: من الآية٣٣)

---

(١) وهذا هو الراجح وهو مذهب السلف الصالح -رضوان الله عليهم وليت الإمام الشوكاني فسر آية ﴿وجاءَ رَبُّكَ﴾(الفجر: من الآية٢٢)، والآتي ذكرها بهذا التفسير.

(٢) راجع الكشاف للزمخشري ٤/٢٥٣ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٥٥ والجواهر الحسان للثعالبي ٤/٤١٣ ومعالم التنزيل للبغوي على هامش لباب التأويل للخازن٧/٢٠٥.

(٣) فتح القدير ٥/٤٤٠.

فقالوا في قوله تعالى في آية البقرة ٢١٠ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾(البقرة: من الآية ٢١٠) هذا من مجاز الحذف والتقدير يأتي أمر الله فقال لهم: أليس قد اتضح ذلك غاية الاتضاح، أن مجيء ربنا -عز وجل- غير مجيء أمره وملائكته، وأنه يجيء حقيقة، وجيء أمره حقيقة، ومجيء ملائكته حقيقة، وقد فصل الله تعالى ذلك وقسمه ونوعه تنويعاً يمنع معه الحمل على المجاز، فذكر تعال في آية البقرة مجيئه ومجيء ملائكته وكذا في آية الفجر، وذكر في النحل مجيء ملائكته ومجيء أمره، وذكر في آية الأنعام إتيان ملائكته وإتيان بعض آياته التي هي من أمره...[1] أ.هـ.

ومن خلال تفسير الشوكاني للآيات الدالة على مجيئه تعالى يوم القيامة لفصل القضاء نجد أنه أحيانا يؤول تبعاً لبعض المفسرين وتأثرا ببعض مشائخه، واحيانا أخرى نجده يفسر الآية على ظاهرها دون تأويل ويورد الآثار الدالة على ذلك، ويظهر أن هذا هو ما استقر عليه رأيه من تفسيره لآيات الصفات، كيف لا وقد ألف في ذلك كتابه (التحف في مذاهب السلف) فأجاد وأفاد، لأن جميع الصفات من باب واحد كالاستواء والنزول والمجيء والاتيان وغير ذلك من الصفات ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وعلى قاعدة (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

ونحن كلفنا باثبات ذلك والإيمان به على مراد الله دون الخوض في الحديث عن ذلك، وكيف ينتقل ويتحرك فهذا مما لم نكلف بمعرفة حقيقته، وقد سبق الكلام على مثل هذا مراراً والله اعلم.

---

(١) فتح القدير ٥/٤٤٠.

خامساً: منهجية في تفسير صفة الكلام

لقد سبق الحديث عن تفسير الشوكاني لصفة الاستواء لله تعالى على عرشه، وأن العلماء اختلفوا في ذلك الى أربعة عشر قولاً وبين -رحمه الله تعالى- الحق في ذلك.

وصفة الكلام لله تعالى هي من الصفات التي اختلف الناس فيها اختلافاً كثيراً وتفرقوا في تفسير الآيات المتعلقة بالكلام كتفرقهم في تفسير آيات الاستواء، والحق ما كان عليه سلف الآمة وخير القرون حيث امسكوا عن الخوض فيها، وتأدبوا مع النصوص القرآنية والاحاديث النبوية، فأثبتوا لله كلاماً حقيقياً دون البحث عن كيفية تكلمه سبحانه بذلك الكلام فالوصف بالتكلم من أوصاف الكمال والله تعالى له الكمال المطلق.

ولنتعرف الآن على منهج الشوكاني في تفسير الآيات التي تثبت الكلام لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته.

فعند تفسير قوله تعالى[1] ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾(البقرة: من الآية٢٥٣)

قال: قال: قوله ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ وهو موسى وبنينا سلام الله عليهما. وقد روى عن النبيﷺ أنه قال: في آدم (إنه نبي مكلم)[2] وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر[3]، أهـ.

---

(١) قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٥٥.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل ٧/٢٠٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥١٠ وراجع ١/٢٤٨ من نفس المصدر عند تفسير قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾(البقرة: من الآية ٢١٠).

قال الفخر الرازي: اتفقوا على أن موسى عليه السلام مراد بقوله تعالى ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾.

فإن قيل إن قوله تعالى ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ المقصود منه بيان غاية أولئك الأنبياء الذين كلم الله تعالى، ولهذا السبب لما بالغ في تعظيم موسى عليه السلام قال: [1] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(النساء: من الآية١٦٤)[2]، أهـ.

وعند تفسير قوله تعالى[3] ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(النساء: ١٦٤)

يقول: لما قص في كتابه بعض أسماء أنبيائه ولم يذكر أسماء بعض، قالت اليهود ذكر محمد الانبياء ولم يذكر موسى، فنزل ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[4].

وقراءة الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله هو الذي كلم موسى.

وقرأ النخعي ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف[5] على أن موسى هو الذي كلم الله سبحانه[6] وتكليماً، مصدر مؤكد. وفائدة التأكيد دفع توهم كون التكليم مجازاً كما قال الفراء[7]: أن العرب تسمى ما وصل الى الانسان كلاماً بأي طريق. وقيل ما لم يؤكد بالمصدر، فإن أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام.

---

(١) مختصر معارج القبول للشيخ حافظ آل حكمي ص٧٧.

(٢) فتح القدير ٢٦٩/١.

(٣) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم قلت: يا رسول الله: ونبي كان؟ قال: نعم نبي مكلم. قلت يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيرا) رواه أحمد في مسنده ١٧٨/٥.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣٠٤/١، والجامع لأحكام القرآن ٢٦٤/٣.

(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٠١/٦، والآية ١٦٤ من سورة النساء

(٦) فتح القدير ٥٣٨/١.

(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/٦.

قال النحاس[1]: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً أ.هـ.

قال القرطبي (تكليما) مصدر معناه التأكيد يدل على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلاماً في شجرة فسمعه موسى، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلماً[2].

وقال ابن كثير: وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليم، ثم ذكره السيوطي عن ابن مردويه....الى أن قال: وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش –رحمه الله– على من قرأ كذلك –أي بنصب لفظ الجلالة– لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام، أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ فقال له: يا ابن اللحناء: كيف تصنع بقوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾(الأعراف: من الآية١٤٣)

يعني هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل[3] أ.هـ.

---

(١) وهي قراءة شاذة لم يقرأ بها أحد من القراء العشرة المشهورين، ولا الأربعة عشر فلا يلتفت إليها.

(٢) وقد قيل إن بعض المعتزلة قال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريد أن تقرأ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(النساء: من الآية١٦٤) بنصب لفظ الجلالة، ليكون موسى هو المتكلم لا الله فقال له أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية هكذا فكيف تصنع بقوله تعالى ﴿ولمّا جاء مُوسى لميقاتنا وكلّمهُ ربُّهُ﴾(الأعراف: من الآية١٤٣) فبهت المعتزلي.

(٣) أخرج ابن مردويه والطبراني عن عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل الى أبي بكر بن عياش فقال: سمعت رجلاً يقرأ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(النساء: من الآية١٦٤) يعني بنصب لفظ الجلالة، فقال ما قال هكذا إلا كافر، قرأت على الاعمش...وساق السند الى

وعند تفسير قوله تعالى[1]: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(الأعراف: من الآية١٤٣)

يقول الشوكاني: اللام في ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ للاختصاص. أي كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور بمعنى أنه جا في الوقت الموعود. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي أسمعه كلامه من غير واسطة. أ.هـ.

وفي تفسيره للآية التي بعد هذه مباشرة ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾(لأعراف: من الآية١٤٤) يقول: والمراد بالكلام هنا: التكليم، امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة.أ.هـ.

ففي هاتين الآيتين إثبات الكلام لله تعالى. وأنه يتكلم متى شاء وأنه كلم موسى –عليه السلام– من غير واسطة.

وقوله تعالى ﴿وكلمه ربه﴾ قطعت لسان كل من يحاول أن يؤل قوله تعالى في الآية السابقة[2] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(النساء: من الآية١٦٤) حيث حاول بعض المعتزلة أن يعتمد على قراءة أو هي من بيت العنكبوت فيجعل لفظ الجلالة منصوبا وموسى هو المتكلم. كما سبق بيان ذلك. وجواب أبي عمرو –أحد القراء السبعة– على المعتزلي.

رسول الله ﷺ بأنه قرأ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(النساء: من الآية١٦٤) يعني برفع لفظ الجلالة. قال الهيثمي. ورجاله ثقات...الدر المنثور ٢ ٧٤٩.

(١) أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ. ولم أقف على كلامه هذا في معاني القرآن له. ونقله عنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٦ ١٨.

(٢) إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ ١ ٤٧٣ تحقيق د/زهير غازي ط العاني بغداد ١٣٩٦هـ ١٩٧٧م.

وعند تفسير قوله تعالى[1]: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(التوبة: من الآية٦)

قال الشوكاني إثناء تفسيره للآية: المعنى وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فأجره أي كن جارا له مؤمناً محامياً ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ منك ويتدبره حق تدبره. ويقف على حقيقة ما تدعو إليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي إلى الدار التي يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم أ.هـ.

ففي الآية إثبات الكلام لله تعالى، وأن الذي يقرأ ويتلى ويسمع هو كلام الله حقيقة وليس هو عبارة عن كلام الله النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت كما يزعم بعض أهل الكلام من الفلاسفة وغيرهم.

يقول القرطبي: قال العلماء في قوله تعالى ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ دليل على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ.

قاله الشيخ أبو الحسن والقاضي أبو بكر وأبو العباس القلانسي وابن مجاهد وأبو إسحاق الإسفرانيني وغيرهم، لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ فنص على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه. ويدل عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا: سمعنا كلام الله.

وفرقوا بين أن يقرأ كلام الله تعالى وبين أن يقرأ شعر امرئ القيس، وقد مضى في سورة البقرة[2]. معنى كلام الله تعالى، وأنه ليس بحرف

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٨ وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٢/٢٥٦.

(٢) تفسير بن كثير ١/٥٨٧.

بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب) رواه البخاري بنحوه[1].

سادساً: منهجه في تفسير صفة الوجه

هذه الصفة من الصفات الخبرية، وقد أشكلت على بعض الناس من المتقدمين والمتأخرين، رغم ثبوتها بالكتاب والسنة. فمن ذلك قوله تعالى[2] ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(البقرة: من الآية١١٥).

يقول الشوكاني: موضع الشروق وموضع الغروب ملك لله، وما بينهما من الجهات والمخلوقات فيشمل الأرض كلها. وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: أي جهةٍ تستقبلوها فهناك وجه الله، أي المكان الذي يرتضى لكم استقباله، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها. أ.هـ.

وقد اختلف العلماء في هذه الآية الكريمة. هل هي من آيات الصفات التي لا يجوز تأويلها، أو ليس من آيات الصفات؟ لأن سياق الآية يدل على أن المراد بالوجه فيها الجهة أو القبلة. وهما معنيان متقاربان. والذي يمعن النظر في كلام

---

(١) نسبة إلى الواثق بالله وهو أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد أحد الخلفاء العباسيين ١٨٦-٢٣٢، انظر تاريخ الأمم الاسلامية ص٢٤٨-٢٢٩، ١٧٤، ط المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٧٠م.

(٢) المصدر المذكور ١١/١٧٧ ٣٥٩ مؤسسة الرسالة بيروت ط التاسعة إشراف شعيب الأرنؤط، وانظر أصول مذهب الإمام أحمد ص٤٠ فما بعدها. مكتبة الرياض الحديثة ط الثانية ١٣٧هـ والأعلام للزركلي ١/٢٠٣.

العلماء يترجح له بأن هذه الآية هي كغيرها من آيات الصفات بها تثبت صفة الوجه لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته كسائر الصفات، والله أعلم(١).

وعند تفسير قوله تعالى(٢) ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(القصص: من الآية٨٨)

نجد الإمام الشوكاني يفسر الوجه بالذات فيقول: وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال (لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ) من الأشياء كائنا ما كان (هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ) أي إلا ذاته. قال الزجاج (وجهه منصوب على الاستثناء..) أهـ.

وكذا عند تفسير قوله تعالى(٣) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ*وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ﴾ الرحمن ٢٦/٢٧.

---

(١) قال الشيخ حافظ آل حكمي: الواقفة هم الذين يقولون في القرآن: لا تقول هو كلام الله ولا تقول مخلوق. قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: من كان منهم يحسن الكلام فهو جهمي، لأنه في حقيقة الأمر لم يؤمن بأن القرآن منزل ومن كلام الله تعالى، ومن كان لا يحسنه بل كان جاهلاً بسيطاً فهو تقام عليه الحجة بالبيان والبرهان، فإن تاب وآمن بأنه كلام الله تعالى غير مخلوق وإلاّ فهو شر من الجهمية. أهـ مختصر معارج القبول ص٦٣.

(٢) ولعل مراد الشوكاني بالوقف هو الوقف في مسألة قدم القرآن المطلق لا قدم صفة الكلام لله جل وعلا، لأن الإمام الشوكاني موقفه واضح ومعروف في سائر الصفات، ورسالته (التحف في مذاهب السلف) أكبر دليل على ذلك حيث أوضح فيها مذهب السلف الصالح ولم يفرق بين صفة وأخرى، بل أجراها على ظاهرها مع اعتقاد معناها من دون تأويل ولا تعطيل ومن دون تشبيه ولا تمثيل -كما سبق ذكر ذلك في هذا البحث. وأيضاً لعله يقصد الوقف في تكفير هؤلاء الذين تكلموا في القرآن بشيء وكان أولى بهم السكوت والتوقف.

(٣) أما أن القرآن كلام الله غير مخلوق ولا محدث. فهذا هو معتقد الشوكاني وغيره من أهل السنة والجماعة. انظر الشوكاني مفسراً ص٢٠٣.

يقول الإمام الشوكاني: أي كل من في الأرض من الحيوانات هالك وغلب العقلاء على غيرهم فعبر عن الجميع بلفظ (من).

وقيل أراد من عليها من الجن والانس ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الوجه: عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده. وقيل معنى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ تبقى حجته التي يتقرب بها إليه. والجلال: العظمة والكبرياء واستحقاق صفات المدح...أهـ.

وقال ابن كثير: وقد نعت الله تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهل أن يجل فلا يعصى وأن يطاع فلا يخالف[1] أهـ.

أقول فالآية صريحة في إثبات صفة الوجه لا تدع مجالا لمتأول، ولأن الله تبارك وتعالى أضاف الوجه الى الذات ثم وجه النعت الى الوجه، ولو كان الأمر كما قال المؤولون من أن الوجه هو الذات فيكون صلة لا صفة، لقال بعد ذلك (ذي الجلال والإكرام) إلا أن رفعه لكلمة (ذو) يدل على أنه نعت للوجه. وأن الوجه صفة لله تعالى. لأنه أضاف الوجه الى الذات. وأضاف النعت الى الوجه. ولم يقل (ذي) وبهذا نفهم أنه نعت للوجه وهو صفة للذات[2] والله أعلم.

والوجه قد يعبر به عن الذات، كما ذكر ذلك القرطبي وابن كثير والخازن وسليمان الجمل وغيرهم[3].

وهناك قول آخر في معنى قوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ مروي عن مجاهد والثوري: أي إلا ما أريد به وجهه، هذا القول لا يتنافى مع القول

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٣/٣ وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبيﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ١٣ ٣٣٠

(٢) فتح القدير ١٣١/١.

(٣) راجع البيهقي موقفه من الالهيات ففيه كلام نفيس ص٢٣٧.